دراسة الآخر(الغريب) من منظور البحث الأنثروبولوجي

د.بوحسون العربي
جامعة تلمسان

تمهيد:

يطرح موضوع الآخر مجموعة من الأسئلة والاستفسارات المتداخلة في مختلف المجالات، الأدبية والسياسية والاقتصادية والثقافية والحضارية المعاصرة، ولهذا يمكن تناوله من خلال عدة مقاربات، فالآخر بالنسبة إلى الذات الدينية هو ذلك الإنسان الذي ينتمي إلى دين آخر، أما الآخر بالنسبة إلى الذات القومية أوالعرقية فهو الذي ينتمي إلى قومية أوعرقية أخرى، وأما من وجهة النظر الفلسفية، وفي نظر الجابري، الآخر بالمفهوم المعاصر هو مفهوم إيديولوجي[1]. غير أن الأنثروبولوجيا أعطت بفضل مقارباتها الثقافية والرمزية والبنائية في دراسة المجتمعات البدائية أهمية كبيرة لهذا المفهوم، واستطاعت أن تتميزعن الحقول المعرفية الأخرى في العلوم الاجتماعية والإنسانية. ولعل المراحل التي برزت في الدراسة الأنثروبولوجية للمجتمعات مند مرحلة البدائية إلى اليوم لخير إنتاج لتأكيد تفوق هذا العلم في هذا الميدان.

1-دراسة الآخروالنقد الذاتي:

مهما تعددت الأطروحات فإن هذا المفهوم-أي الآخر- يشكل على المستوى النظري موضوعا متميزا لإنتاج المعرفة لدى الفلاسفة وعلماء الإناسة الذين يرون أن الآخر المختلف عنا في هويته وثقافته وعرقه وطبيعته لا يمكن فهمه دون فهم ذواتنا، بل يجب أن تسبق معرفة الذات والنفس قبل معرفة الآخر، غير أن كلوكوهن يرى» أن دراسة البدائيين تساعدنا على تحسين فهمنا لأنفسنا، فنحن لا نكون عادة واعيين لتلك العدسة الشديدة الخصوصية التي نرى الحياة من خلالها[2]. هذا ما يجعل «النحن» و»الآخر» في علاقة شديدة التداخل، تتجلى في الحاجة إلى الفهم المشترك والمتبادل بين الطرفين. وقد أخذت الأنثروبولوجيا على عاتقها منذ بدايتها دراسة الثقافات الغابرة، والاختلافات ما بين المجتمعات، هذا ما جعل انشغالاتها ومهامها الأساسية تتحدد في التفكير في الآخر الذي اعتبر من مفاهيمها الأساسية[3]، حيث أن نقد الذات والتشكيك فيها لا يمكن أن يتحقق بأسلوب علمي ما لم يرافقه فهم نقدي للآخرين[4]، كما أن النظرة إلى الآخر غايتها المقارنة وتحسين فهم الذات، هذا ما أكده الفيلسوف روسو في كتابه»محاولة في دراسة أصل اللغات-1964»علينا أن ننظر إلى ما حولنا عندما نريد دراسة البشر، أما إذا أردنا دراسة الإنسان فعلينا أن ننظر إلى بعيد، فاكتشاف الخصائص

يقتضي البدء بمعاينة الفروقات والاختلافات[5]» إن الدراسة الموجهة للآخر بهذا الشكل النياسي تتيح لنا الفرصة لنقد ذواتنا ومجتمعاتنا, وتمكننا أيضا من فهم ماضينا بما يتضمنه من ثقافة وبنيات اجتماعية خاصة. بالإضافة إلى ذلك تعتبر انجازات الآخر وتراثه عاملا أسياسيا في تقويم الذات ونقدها, هذا ما أكده م.غودولييه بقوله"يجب أن نعترف بأن ما عند الآخرين وبسبب الآخرين نستطيع أن نحقق فهم أفضل لأنفسنا, وهذا هو جوهر أنثروبولوجيا الأمس والغد"[6].

2-دراسة الآخرونشأة النياسة:

لقد قيل عن مولد النياسة أنها المعرفة التي نشأت حول طرائف الأشياء ونوادرها ومجموعات منها, ثم بدأت تبحث في غرائب الأمور حتى اعتبرت العلم الذي يدرس الآخر الأجنبي والمختلف. وقد أكد هذا ج.لومباربقوله" النياسة قبل كل شيء هي النظرة التي نلقيها على الآخر, هي رغبتنا في معرفة تلك الشعوب المتفاوتة في بعدها عنا, والتي قد تكون قريبة منا في بعض الأحيان لكنها تبدو مختلفة عنا كل الاختلاف[7]".

كيف يمكننا من خلال دراسة وتحليل مفهوم الآخر أن نكتشف الأساليب والطرق المنهجية التي أدت إلى إنشاء اتجاهات ومدارس في الأنثروبولوجيا؟

عندما نتتبع حقيقة تاريخ الأنثروبولوجيا نجده عبارة عن تصوير لمراحل ومواقف وجدت بين أوربا بصفتها الغرب المتطور والمهيمن, والشعوب غير الغربية بصفتها الآخر المتخلف والبدائي الذي اعتبر موضوعها الأساسي, حيث يرى الغرب أن المجتمعات التي درست من قبل الأنثروبولوجيين الأوائل هي المجتمعات المختلفة عنه في بعض الخصائص كقلة اتصالاتها مع المجموعات المجاورة, وتمتعها بتكنولوجيا أقل تطورا من تكنولوجيته, ولها بعض التخصصات في بعض النشاطات والوظائف الاجتماعية[8]. وقد اعتبروها مجتمعات بسيطة في حياتها, ولهذا جاءت الأنثروبولوجيا من تدبير موضوع خاص بها, وهو دراسة المجموعات السكانية التي لا تنتمي إلى الحضارة الغربية. ونظرا لتخوف الأنثروبولوجيين الغرب من فقدان موضوعهم التقليدي بسبب التحول التكنولوجي الذي أصبح يزحف إلى مختلف الأقطاروالشعوب المختلفة عنهم, مما قد يؤدي إلى تضييق فجوة الاختلاف بينهم وبين الآخر الغريب, بدأوا يطالبون بالإسراع بالدراسة للمجتمعات التي تشهد هذه التحولات, حتى لا تتلاشى الأبعاد الثقافية والاجتماعية التي يريدون الكشف عنها, وهذا ما أكده الأنثروبولوجي الانجليزي إيفانز بريتشارد عندما قال:"يتوجب علينا دراسة المجتمعات القديمة بسرعة كبيرة الآن قبل فوات الأوان, لأن أنظمتها المجتمعية هي آخذة في الاضمحلال, وهي منوعات بنيوية تساعدنا دراستها على فهم طبيعة المجتمع البشري فهما أفضل"[9].

لقد تعامل علماء الأنثروبولوجيا مع المجتمع البدائي كموضوع خام لتهيئة المعطيات للتحليل العلمي(أي أنها مستودع للمعلومات) بداية من أولى الرحلات إلى غاية مرحلة الاعتراف بثقافة الآخر المادية وغير المادية. ولعل المراحل التي انشغل فيها الأنثروبولوجيون بالآخر[10],كانت عبارة عن حلقات من التراكم المعرفي الأنثروبولوجي, وكانت البداية من:

1-2-التأمل والبحث في أحوال الآخر الأجنبي والبعيد:

لقد تميز القرن18 بولادة مشروع أنثروبولوجي صريح الذي واكب الاكتشافات العلمية الكبرى حول الآخر في المحيط الهادي وإفريقيا وأمريكا, وتمت توجيه الدراسات بأسلوب موضوعي. حيث بداية من منتصف هذا القرن أدى الاهتمام المتجدد بالمجتمعات البعيدة إلى برمجة أكثر دقة للرحلات الاستكشافية, وأصبحت الأسفار البحرية تتطلب اصطحاب علماء طبيعة ذوي جدارة ومجهزين بمعلومات محددة لكي يصفوا طبيعة البلدان التي يبلغوها. ولتجسيد ذلك قام مجموعة من الإيديولوجيين بالتعاون مع أطباء وعلماء طبيعة ومؤرخين بفرنسا بتأسيس جمعية لمشاهدات الإنسان, حيث كان الإنتاج الأبرز لهذه الجمعية هو إصدار دليل بحث ميداني حول تأملات في المناهج المتنوعة التي يجب إتباعها في مراقبة الشعوب الهمجية. وقد ساعد هذا الدليل الأبحاث الأنثروبولوجية خلال القرن 19 على القيام بدراسات ميدانية موجهة نحو اكتساب المعارف[11].

وتجلى ذلك في أبحاث وأعمال الرحالة والأنثروبولوجيين الأوائل, والفلاسفة وعلماء التاريخ والجغرافيا الذين استخلصوا أفكارهم ومعارفهم على الشعوب التي درسوا ثقافاتها وتاريخها ومناخها وغرائب عاداتها. حيث أن التراث المعرفي يضع هيرودوت(425-480 ق.م) في صلب بدايات المعرفة عن المجتمعات الأخرى[12],وهذا الأمر قد شكل اتجاها عاما لدى كل رواد النياسة[13].لقد تبلور الاتجاه الأول في الدراسات الوصفية للآخر أي الإثنوغرافيا-Ethnography وهي المرحلة الأولى من العمل لمرحلة جمع المعطيات في نظر الأنثروبولوجي الفرنسي نيلفي اشتراوس[14]. وبالرغم من أن هيرودوتس قام شخصيا بأبحاث ميدانية عن البرابرة وتقاليدهم (الذين لا يتكلمون اللغة اليونانية), إلا أن صورة الآخر بقيت خاصة للطابع اليوناني ولم يستطع أن يخلق تقليدا لا في المشاهدة ولا في التأمل بالغيرية[15], وكان من الصعب في هذه المرحلة الإثنوغرافية التوصل إلى إنتاج منهج فكري ونقدي لإنتاج المعرفة الأنثروبولوجية.

لقد تعرض»الآخر« الغريب لعدة تساؤلات من طرف المسافرين والرحالة الذين عملوا على اكتشاف الفوارق ما بين الشعوب منذ بداية ق16, وتعتبر هذه المرحلة ما قبل التفكير الأنثروبولوجي الذي حدث خلال القرنين 20-19. حيث تم إعداد الخطابات حول السكان الذين كانوا يعيشون في

فضاءات بدائية. إن السؤال الكبير الذي تم طرحه في هذه الفترة, والذي تبلور بسبب الالتقاء بهذه الغيرية أي الآخر, هو هل ما سنكتشفه ينتمي إلى الإنسانية؟ وهل المتوحش(البدائي) له روح؟ وهل هم معنيين بالخطيئة الأصلية؟[16]. إن هذه الأسئلة التي طرحت في ق16 بقيت دون إجابة, ولم تناقش إلا بعد مرور قرنين أي حتى بداية ق18, ومنذ هذه المرحلة بدأ التخطيط لميلاد إيديولوجيتين متنافستين ومتناقضتين في آن واحد, وهما: رفض الأجنبي من منطلق إدراك لنقص تجاهه(تصور خاطئ) من جهة, والافتتان بالأجنبي والانبهار به من جهة أخرى.إن مختلف الدراسات التي جرت حول «الآخر» في مختلف الأزمنة خلال هذه الفترة كان يغلب عليها الطابع الوصفي والإخباري عن الشعوب المختلفة بغرض إجراء المقارنات. وتعتبر مرحلة أساسية من حيث التراكم في المعرفة الخام التي امتزج فيها الصواب بالخطأ عندما استخدمت فيها طرق وأساليب معينة لجمع المعلومات, كالاعتماد على الوثائق والمخبرين والرحالة, هذا ما أوقع البعض في بناء نظريات وتعميمات غير صحيحة على الآخر(المبحوث), كما حدث ل ماك لينان Mc lennan في كتاباته عن الزواج المتعدد من قبل المرأة, والزواج الأحادي, وكذا نظام الأمومة المتبع عند معظم الشعوب البدائية[17].

2-2-الاستهانة بالثقافات الأجنبية هي بداية لبلورة مواقف وإيديولوجيات:

بالرغم من صعوبة إنتاج معرفة نقدية في مرحلة التأمل في أحوال الأجنبي إلا أن تبلور مواقف فكرية وإيديولوجية بدأ واضحا منذ العصور القديمة حول غرائب العادات والفروقات الثقافية, خاصة بين ثقافة المعاين والثقافة موضوع الدراسة. هذه المواقف سرعان ما أخذت بعض المفاهيم كالبدائية والوحشية والبربرية. وبدأ الغرب يتجاهل الهويات الثقافية لهذه الشعوب ومعاملتها كمستودعات لكل ما هو غريب ومخالف من العادات والأنماط السلوكية. أوكدرجات أولية في سلم الترقي نحو حضارة الغرب[18]. وبناء على تشكيل هذه المفاهيم في الدراسات الإناسية الأولى من خلال التطرق إلى غيرية الآخر والاستهانة بها ووصفها بالدونية والمتخلفة تحددت العلاقة بين (النحن والآخرين)، ثم تحت تأثير البعثات الدينية في القرون الوسطى وعصر النهضة استبدلت العلاقة(النحن والبرابرة) التي كانت سائدة في العصور القديمة بعبارة(نحن والمشركين), ومن تم بدأت التساؤلات الإيديولوجية والعقائدية تأخذ مكانها في تفسير الآخر.[19]

لقد جاءت عدة كتابات ونصوص تدعم فكرة البدائية والوحشية لهذه الشعوب, نذكر من بينها كتاب»روح القوانين-1748»للعالم مونتسكيو عندما وصف الشعوب التي تعيش على سواحل إفريقيا بأنها وحشية وبربرية وتفتقد إلى الصناعة ولا أثر لديها للفنون[20]. وكذلك حتى مصطلح البدائية تحول من الوصف الأول لهذه الشعوب بالمتخلفة والهمجية إلى الوصف العنصري. فالبدائي الذي تكلم

عنه الأناسين في بادئ الأمر هو الذي يعيش في مجتمعات صغيرة وبسيطة في بنائها الاجتماعي والثقافي، ومعزولة جغرافيا واجتماعيا وليس لها تاريخ مكتوب، وعلى حد تعبير هؤلاء الأناسين هي مجتمعات ذات تاريخ ساكن غير متحرك، بينما البدائي كمصطلح عندما استثمروه الأناسين الأوروبيين ذوي الصبغة العنصرية أمثال غوبينوGobineau كان لغرض عنصري، حيث كان يرى هذا الأخير أن الأعراق يتفاوت المنطوين تحتها في قابليتهم الخاصة في القدرة على الإبداع والتطور الثقافي، ولهذا اعتبر الإنسان الأوروبي الأبيض هو الأقدر على الإبداع في حين أن الأناس الآخرين الملونيين(السود، الصفر،المغول،السمر) أقل قدرة على الإبداع والتطور، لا لشيء سوى أنهم ليسوا من العرق الأبيض[21]. كما استخدمت هذه الروح العنصرية كذلك من طرف الأناسين العنصريين لأجل تجسيد الحملات الاستعمارية الأوروبية مثل ما وقع على أرض الجزائر عندما نشر أرنست مرسي كتابه سنة 1901 تحت عنوان»مسألة الأهالي في الجزائر في بداية ق20-la question indigène en Algérie au comménement deXX siècle. فقد بدا له أن وضع المعارف حول السكان الأهالي غير كاف، والحال أن المعارف حول هؤلاء السكان هي التي لا تبعث على الرضا، وهو سبب طيب للخلوص إلى أن هناك فرقا بين الأوروبيين والأهالي ومن تم حق الأوائل في إدارة شؤون الآخرين[22]. إن هذا التقسيم بين مجتمع وصف بالمتوحش ومجتمع حديث، أدى إلى ترويج لأفكار عنصرية وإيديولوجية لتكريس الحملة الاستعمارية الفرنسية على الجزائر.

وبسبب الاستهانة بالآخر بدأت تتشكل العلوم بإعادة نظر جذري في أنماط المعارف ومناهج تفسير الكون بطرح مشكلات فلسفية وعلمية في آن واحد. ثم بدأ أيضا التفكير في نظرية أرسطو حول العبودية كذلك، كما أن تشريع الغزو الاستعماري لأراضي شاسعة أخذ يفرض على علماء اللاهوت جهدا معتبرا في التأمل الإثنولوجي الذي اعتبر الأول من نوعه في الإثنولوجيا وإحدى مميزات الفلسفة الأنثروبولوجية النقدية والنسبوية[23].

كما تشكلت أيضا عدة نظريات غربية كنظرية المركزية الغربية والمركزية العرقية ومركزية العقل وكانت لهذه النظريات صدى كبيرا في تحديد موقع الآخر والموقف منه على المستويين الفكري والإيديولوجي.

2-3-المقاربة النقدية من خلال فهم الآخر(تقدير الثقافات الأجنبية): ظهرت هذه المقاربة لتؤكد أن الآخر الذي ظل ينعت بالبري وبالهمجي، والذي اتخذت إزاءه مواقف وتشكلت معه إيديولوجيات لقي في مرحلة لاحقة التقدير والاحترام والاعتراف بوجوديته وبثقافته، إذ أصبح من الواجب التعامل معه والاحتكاك به من أجل التبادل المعرفي.

لقد بدأ الاعتراف بالآخر وبثقافته عندما شعر الكثير من الأناسين بضرورة التخلص من كلمة البدائي أو البدائية لأنها ظلت لوقت طويل تحمل الكثير من الاحتقار والدونية لتلك الشعوب, حيث دعا «دوزيير» إلى ترك هذا المصطلح لأسباب أخلاقية لما يتضمنه من إهانة وإذلال لهذه الشعوب, ولأسباب سياسية أيضا تمثلت في ردود الأفعال من قبل تلك الشعوب أن كونها تدرس من قبل علماء الإناسة الاجتماعية والثقافية, ذلك العلم الذي يفهمه العامة والمتعلمون على أنه يدرس الشعوب البدائية أي الشعوب التي كانت خاضعة للاستعمار[24].

كما أن الدراسات الميدانية التي أجراها الباحثون بين تلك الشعوب التي وصفت بالبدائية غيرت من وجهة نظرهم عندما وجدوها على عكس ما كانت توصف به بأنها بسيطة وساذجة وصغيرة ومعزولة ولا تاريخ لها, وأن ثقافاتها طفلة بالنسبة لتعقيدات الثقافة الحالية وبخاصة الثقافة الأوروبية. حيث بينت المعلومات المجمعة عن هذه الشعوب أنها ليست بسيطة في بنائها الاجتماعي والثقافي, وإنما هي في كثير من الأمور أكثر تعقيدا من الثقافة الأوروبية نفسها, كما أنها ليست صغيرة, وغير معزولة وأن تاريخها متحرك وتراكمي وليس جامدا وسكونيا, وقد أكد هذا الأنثروبولوجي الفرنسي كلود ليفي ستروس عندما قال:» لا وجود لشعوب طفلة. وإن سكان أستراليا الأصليين الذين يبدون لنا في غاية البساطة والبدائية, إنما يتمتعون بتنظيم عائلي شديد التعقيد, بحيث يستطيع المرء أن يضيف, أن تنظيمنا العائلي يصبح بأدائه بسيطا للغاية»[25].

إن ما يدعم هذه الاعترافات بموت البدائي وتجاوز الأحكام التقييمية تجاه الآخر ما نشر في هذا النص لدى ف.لابلانتين»نقلا عن جاك لومبار في رسالة حول القضاء على بلاد الهنود, كتبها راهب دومينيكي لاس كاساسlas casas «أما الذين يعتقدون أن الهنود قوم برابرة, فإننا نقول لهم أن هؤلاء القوم يملكون قرى ودساكر ومدنا وملوكا وأمراء ونظام سياسي ربما كان في بعض ممالكهم أفضل من نظامنا...إن هذه الشعوب تتساوى في الرقي مع كثير من أمم العالم الراقية والمدركة ,إن لم تكن أشد رقيا منها, لكنها في أي حال ليست أقل رقيا من أي منها.[26] وقال مونتيني أيضا حول أكلة لحوم البشر:» والحال أن ما سمعته عن هؤلاء القوم(شعب أكلة لحوم البشر) لا يوحي إلي بشيء من الوحشية, ولا من البربرية, سوى

أن كل منا يطلق صفة البربرية على ما هو غير مألوف لديه. إذ يبدو أننا لا نرى غرة الحقيقة وعين العقل إلا من خلال الآراء والأعراف المرعية في البلدان التي نعيش فيها»[27].

3-التراث المعرفي الأنثروبولوجي والآخر(تشكل النظريات):

شهدت مختلف العصور دراسات أنثروبولوجية حول «الآخر» بالمفهوم الغربي التي كان يغلب

عليها الطابع الوصفي والإخباري عن الشعوب المختلفة بغرض إجراء المقارنات. غير أن الإنتاجات الأنثروبولوجية لبداية التنظير العلمي تجلت بوضوح في تركيز كثير من العلماء دراساتهم على المجتمع البدائي الذي يعرفه ريدفيلد-Redfield بالمجتمع الصغير والمتجانس الذي لا يوجد فيه تخصص ولا تقسيم للعمل وهو منعزل أيضا[28]. فظهرت من خلاله أثناء ق19 مجموعة كبيرة من الأبحاث التي أنجزت على البدائيين أدت إلى عدة مناقشات من أهمها:

-فن القانون(1857) للمحامي الأسكتلندي ماك لينان Mc lennan تناول فيه طقوس الزواج والطوطمية.

-أصل الأنواع(1859) لعالم الطبيعة البريطاني تشارلز داروين C.Darwin, استطاع بإنجازه هذا أن يؤثر على مناهج العلوم الطبيعية والاجتماعية.

-القانون القديم(1861) ل هنري مين H.Main المتأثر بنظرية داروين.

-الثقافة البدائية(1861) للأنثروبولوجي البريطاني إدوارد بيرنت تايلور E.B.Tylor.

-المجتمع القديم(1877) للأنثروبولوجي الأمريكي لويس مورغان Lewis Morgan.

-ديانة الساميين(1889) للباحث الأسكتلندي وليام روبرت سميث W.R.Smith الذي بين فيه أن الديانات البدائية القديمة تتألف من نظم وممارسات وليس لها مذهبا محددا.

-الغصن الذهبي(1890) للعالم الأسكتلندي السير جيمس فرايزر Sir.J.G.Frazer الذي قارن من خلاله الديانات المختلفة والممارسات السحرية التي ترتبط بكل مستويات الثقافة في العديد من أجزاء العالم[29].

وتبين بعد ذلك أن بفضل مختلف هذه الدراسات والأبحاث الرائدة التي أنجزت عن الشعوب البدائية تمكنت الأنثروبولوجيا من تأسيس الاتجاهات والمناهج عندما خضعت للمناقشة والنقد، وأصبحت تعد مرجعية لكل الأبحاث الحديثة. و من أهم المناهج البارزة في هذا المجال التي أعطت تصورا أنثروبولوجيا لمفهوم"الآخر". والتي نعتبرها أعظم ما أنتجته الأنثروبولوجيا في تاريخها نذكر ما يلي:

1-3-التطورية: فرضت نفسها انطلاقا من أعمال هنري مين(1822-1888) وباخوفن جاكوب(1815-1887), وخاصة إ.ب.تايلور(1832-1917) وكذلك ل.هـ.مورغان(1818-1881), حيث لم يستندوا إلى تطبيق اكتشافات داروين عن المجتمعات البشرية بل حاولوا تحديد مراحل متلاحقة في التاريخ البشري وأقاموا علاقات بكل مرحلة بين الوقائع المؤسساتية والممارسات الاجتماعية والمعتقدات، فاعتمدوا على تاريخ القانون لـ مين وباخوفن, والبحث الميداني الاثنوغرافي

عن القرابة لمورغان مند1850 الذي أجراه على شعب الإيوكوا(الهنود)، ثم في غرب المسسيبي، وقد اعتبر هذا الأخير صديق الهنود بحكم معاشرته لهم. كان من أكبر إنجازاته «المجتمع القديم» الذي ضمنه التطور الإنساني عبر ثلاث مراحل(الوحشية-البربرية-الحضارية). و نذكر كذلك التأملات التعميمية لتايلور (الثقافة البدائية)، وأيضا مقالته حول منهج البحث عن تطور المؤسسات المطبق على قوانيين الزواج والنسب[30]. غير أن هذه المدرسة التطورية لم تسلم من النقد الذي وجهه إليها ف.بواس وتلاميذه عندما قاموا بدراسة إثنوغرافية منهجية على سكان أمريكا الأصليين انطلاقا من الاعتراف بتعقيد وغنى الثقافات الإنسانية التي يجب معرفتها قبل إدعاء إثبات قوانيين عامة[31].

كذلك يعتبر إنجاز « الغصن الذهبي» لـ جيمس فرايزر(1941-1854) من أعمدة الأنثروبولوجيا التطورية الذي ضمنه الأعمال السحرية والطقوسية والطوطمية في دراسته للجماعات البشرية البدائية، حيث كانت له قناعة بأن دراسة العهد القديم واليونان وروما خير تمهيد لدراسة الإنسان[32]

2-3-الوظيفية: نشير هنا إلى أعمال م.موس(1950-1872) بالرغم من أنه لم يذهب إلى الميدان(المعجم-891)، فقد تعامل مع مواثيق ونصوص إثنوغرافية حول دراسة الآخر، حيث اكتسب مبادئ الأنثروبولوجيا من خلال قراءة أعمال ج.فرايزر وكذلك تايلور. وتجلت وظيفيته في كتابه «مبحث في الأعطية»، مقال حول الهبة، وتحليل نموذجي التبادل، في ظاهرتي البوتلاتش التي درسها ف.بواس(1942-1858) على هنود الساحل الشمالي الشرقي، والكولا الميلانيزية التي حللها مالينوفسكي(1942-1884). ويعتبر هذا الأخير أحد مؤسسي الوظيفية، استلهم منهجه من رحلاته الإثنوغرافية في غينيا الجديدة، والمايلو جنوب شرق آسيا والتروبرياند خلال(1918-1915). و قد كانت أبحاثه الميدانية التي أجراها على الشعوب الأخرى-أي الآخر- سببا رئيسيا في اكتشافه الأداة الأساسية للدراسة الأنثروبولوجية إلى حد الآن وهي الملاحظة بالمشاركة. فقد بين لنا من خلال دراسته على الكولا (1924) أنه ينبغي فهم الآخر فهما عميقا، وذكر أن حركة المبادلات بين القبائل لا ينبغي أن تتم بمعزل عن مؤسسة الزعامة ونمط تنظيم العمل وتقنية التشغيل والتصورات المرتبطة بالمعتقدات والأساطير والقيم الاجتماعية المنسوبة إلى المهابة والوفرة والمعطيات اللغوية المتعلقة بالتعازيم الأسطورية.[33]

ونشير كذلك في هذا السياق إلى العالم راد كليف براون(1955-1881) من خلال كتابه «البنية والوظيفة في المجتمع البدائي-1952»، حيث درس سكان جزر الأندمان، واكتشف من خلاله العديد من الطقوس الاحتفالية التي تقام بين أفراد المجموعة البشرية لعدة أغراض كالصلح والتضامن المجتمعي.

3-3-البنيوية: لا يخفى على أحد أن البنيوية في الأنثروبولوجيا صنعها العالم الفرنسي ك.ل.ستروس (1908-2009) وذلك من خلال كتابه البنى الأولية للقرابة. ازدهرت النياسة الفرنسية بالخصوص بعد الحرب العالمية الثانية، أين تم تركيز الأنظار باتجاه العالم الثالث, لما فيه من مصالح سياسية واقتصادية وثقافية, حيث ازداد عدد الباحثين الميدانيين في إفريقيا بين 1960-1970 لدراسة مختلف الشعوب والثقافات التي شكلت عدة موضوعات تمثلت أهمها في القرابة، الاقتصاد، التنظيم السياسي, الدين, والأنظمة الرمزية. كان معظم الأنثروبولوجيين قبل ل.ستروس يجعلون من دراسة الآخر أي المجتمعات المغايرة الموضوع الأساسي لفرعهم المعرفي[34]. وعندما تشكلت المركزيات الثلاث* كإيديولوجيات تجاه الآخر غير الغربي والمختلف والمتوحش وبدأ البعض يحتقر الثقافات الأخرى التي حكموا عليها بالدونية أصدرل.ستروس كتابه «المدارات الحزينة» وكان بمثابة البيان الذي ندد فيه بممارسات الرجل الأبيض والرسالة التي تكلمت عن الآخر بتقدير واحترام ومحبة[35]. لقد شدد ل.ستروس على رفضه استعمال صفة أو نعت البدائي والمتوحش لوصف المجتمعات المخالفة للغرب والحضارة الغربية وذلك للابتعاد عن ميلاد ثنائية حضارية وعرقية تدل على وجود إنسان متحضر متقدم وإنسان بدائي متخلف حتى لا تكون هناك أحكام تقييمية تجاه هذا الآخر. لقد أثنى ليفي ستروس على الحضارات الأخرى المخالفة للحضارة الغربية, حيث قال في كتاب المدارات الحزينة» نحن لم ندخل على الحضارات القديمة سوى بعض التحسينات», كما أنه لم يعتبر الحضارة الغربية نموذجا أو مثالا للتقدم, وما يؤكد تصوره هذا هو أنه لم يقدم بصورة مطلقة النتائج التي حققتها الحضارة الغربية خاصة عندما وصفها بأنها لازالت جارية[36]. لقد ندد أيضا بمظاهر التدمير والعنصرية التي تقوم بها الحضارة الغربية على الحضارات والثقافات المختلفة عنها واعتبارها أقل تطورا منها, وكانت هذه إشارة منه إلى تأكيد نسبية الثقافات*, والحضارة الغربية واحدة منها لأنها اعتمدت في تطورها ووصولها إلى هذا المستوى على الحضارات التي سبقتها. كما أن الوعي بالآخر وبتنوع المعتقدات والمؤسسات وتغييرها بتغير الأمكنة والأزمنة أدى إلى استخلاص مقاربات منهجية في تفسير المجتمعات, التي لم تعد محكومة بقوانين عامة وثابتة بل باصطلاحات تتبدل من مجتمع إلى آخر ومن عصر إلى عصر.

وتبعا لذلك يتفق العديد من الدارسين أن البنيوية قدمت تصورا جديدا للآخر وحاولت إنتاج حركة قامت بإعادة النظر وتقييم الآخر وثقافته وذلك من خلال فكرها العلمي النقدي, وخاصة في نقدها للنزعة الإنسانية الليبرالية ودفاعها عن مفهوم الإنسانية يتميز بالواقعية والعلمية وتجلت هذه الحركة في ما يلي:

-اهتمام «م.فوكو» بالفئة المهمشة كالمريض والمجرم وغير ذلك، ودفاعه عن اللاجئين والمهاجرين وأصحاب الرأي المخالف.

-نقد «التوسير» للنزعة الإنسانية البورجوازية وللعلاقات الإيديولوجية.

-نقد الفيلسوف «ج. ديريدا» لفكرة التمركز العقلي، حيث نادى بضرورة تفكيك الميتافيزيقا الغربية المبنية على فهم معنوي للعقل وتأسيس الاختلاف[37].

إن هذا الفكر النقدي استطاع أن يوجد تراثا معرفيا ونظريات بسبب الدراسات المعمقة التي أجراها العلماء على هذا الآخر الغريب في مراحل متدرجة، وفي مناطق مختلفة من العالم، حيث استخدمت فيها مناهج متطورة لرصد أنواع الثقافات ونماذج الممارسات والعلاقات القائمة في المجتمعات الغابرة.

الخاتمة:

في الواقع ولدت الأنثروبولوجيا من اكتشاف أوروبا للبشر الغرباء، حيث أن مختلف النظريات التي نشأت حول المعرفة الإنسانية والاجتماعية كان مصدرها البحث في النمط الثقافي للآخر ونظام حياته. ولأن من المهام الأساسية للأنثروبولوجيا التفكير في الآخر، فقد اعتمدت على عدة جوانب تاريخية(البحث في البدائي) وجغرافية (البحث فيما هو خارج عن إقليم أوروبا)، حيث ارتسمت هذه الدراسة منذ ق16 حسب خصائص وأوصاف لمختلف الشعوب مثل استبدادية الشرقي، ولا عقلانية الإفريقي، ووحشية الهندي...إلخ. غير أن هذه الأوصاف تحولت في ق20 إلى مفاهيم أخرى حسب طبيعة التحولات والإيديولوجيات المعاصرة، مثل الحرية، الأخوة، المساواة وخاصة في بلدان العالم الثالث بسبب الاستعمار[38].

إن الأنثروبولوجيا هي أداة لتنمية المعرفة العقلانية للآخرين ولأنفسنا وممارستها بحرية من طرف الأفراد الذين يرفضون أولا يقبلون بأن تفكيرهم وعملهم يوضع مسبقا على ما سمح لهم المشاهدة أو القول بقوى زمنية أو غيبية، كما أن فهم معتقدات الآخرين بدون مشاركتهم فيها، واحترامها بدون الامتناع عن نقدها، والاعتراف بأن ما عند الآخرين، وعن طريق الآخرين يمكننا الفهم الأفضل لدواتنا مثلما هو النواة العلمية، لكنه أيضا أخلاقي وسياسي لأنثروبولوجيا الأمس والغد[39].

لقد ذكر ليفي ستروس» لانزال نعتمد على الاكتشافات الهائلة للعصر الحجري الرابع من الزراعة إلى تربية الحيوان والنسيج، ولكن لم نضف لها شيئا سوى بعض التحسينات» نلمس من هذا أنه يعترف بالآخر وبإنجازاته، حيث يقدم نقده الجذري لفكرة المركزية الأوروبية، والنموذج الغربي للحضارة، فهذه دعوة لتقبل الرأي الأخر المخالف وإقامة علاقات صحيحة معه، والتفتح على الثقافات المختلفة

واحترام الخصوصيات والهويات الثقافية للآخرين. إن تصور ليفي ستروس للآخر بهذا الشكل يسمح لنا القول أن هناك مركزية عرقية طبيعية في البشر, وهي أن التكلم على الآخرين هو ليس التكلم في ظهورهم, أو التكلم ضدهم, فالتمركز العرقي هو أمر طبيعي لكل إنسان, هندي, عربي, فرنسي,..., بحيث أن كل واحد يعرف نفسه بلغته وبطرق حياته...كما أنه له ميل إلى الرفض والنقد, وعدم تقييم من هم مخالفين له[40]. ومهما تعددت الآراء واختلفت النظريات حول أطروحات الحضارة والثقافة البشرية التي تنادي بالصراع أحيانا وبالحوار أحيانا أخرى, فإن تداخل الثقافات وتفاعلاتها سيظل المحور الأساسي للنقاش في العصر الراهن.

المراجع:

1-أيس . الغيرية .. الآخر.. مقولات التحاور وإمكانات اللقاء, مجلة فلسفية,العدد02/2007 مؤسسة الأخبار للصحافة-الجزائر,ص64.

2-جاك لومبار, مدخل إلى الإثنولوجيا, ترجمة حسن قبيسي.ط1, المركز الثقافي العربي, بيروت,1997,ص41.

.3–Claude Rivière, Introduction à l›anthropologie,ed,Hachette,paris, 2002.p.12.

4-françois-laplantine,l›anthropologie,ed,payot.paris,2001.p.20.

5– Marc Abélès .Anthropologie et Marxisme , ed , complexes .puf .1976.p.163.

6-Maurice Godelier,Au fondement des sociétés humaines,ce que nous apprent l'anthropologie,ed,Albin Michel,France,2007.p.64.

7-جاك لومبار,مرجع سابق,ص29.

8- fraçois-laplantine,op.cit.p.10.

9--جاك لومبار,مرجع سابق,ص30.

10-نفسه,ص37.

11- بياربونت, ميشال إيزار, معجم الأثنولوجيا والأنثروبولوجيا, ترجمة وإشراف مصباح الصمد,ط1, المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع»مجد»,2006,ص334.

12-نفسه,ص332.

13- جاك لومبار,مرجع سابق,ص31.

14-علي عبد الله الجباوي .علم خصائص الشعوب .علم الأقوام , التلوين , دمشق .2007,ص13.

15- بياربونت, ميشال إيزار,ص332.

16- françois-laplantine,op.cit.p.33.

17- علي عبد الله الجباوي, مرجع سابق, ص83.

18-فتحية محمد أحمد ابراهيم,أزمة الهوية الثقافية في عصر العولمة, رؤية أنثروبولوجية, جامعة الملك سعود, الرياض, المملكة العربية السعودية.الموقع:http://digital.library.ksu.edu.sa/V28M. ص02.

19- جاك لومبار,مرجع سابق,ص33.

20-نفسه,ص39.

21- علي عبد الله الجباوي, مرجع سابق, ص128.

22-فيليب لوكا جون كلود فاتان-جزائر الأنثروبولوجيين- نقد السوسيولوجيا الكولونيالية وترجمة محمد يحياتن, بشير بولعراف, وردة لبنان, منشورات الذكرى الأربعين للإستقلال, وزارة المجاهدين.2002.ص25.

23- بياربونت, ميشال إيزار,ص333.

24-علي عبد الله الجباوي, مرجع سابق, ص126.

25-نفسه,ص127.

26- françois-laplantine,op.cit.p.34.

27-Ibid,p.40.

28-يحي مرسى عيد بدر, أصول علم الإنسان, الأنثروبولوجيا,ج1.ط1,دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر, الأسكندرية,2007,ص224.

29-نفسه,ص234-223.

30- بياربونت, ميشال إيزار,ص334,344.

31-نفسه,ص334.

32- جاك لومبار,مرجع سابق,ص78.

33- بياربونت, ميشال إيزار,ص.800.

34-جاك لومبار,مرجع سابق,ص266.

(*)المركزيات الثلاث هي النمركزية الأوروبية والمركزية العرقية ومركزية العقل.

35-الزواوي بغورة المنهج البنيوي .بحث في الأصول و المبادئ و التطبيقات , دار الهدى , عين مليلة الجزائر 2001. ص202.

36-نفسه, ص203.

(*)نسبية الثقافات حسب جاك لومبارهو مفهوم يعتبر أن لا معنى لأي ثقافة من الثقافات ولا قيمة لها إلا ضمن سياقها الخاص.

37-نفسه,ص202.

38- Claude Rivière,op.cit.p.12.

39- Maurice Godelier,op.cit.p.63.

40- Claude Rivière,op.cit.p.13.